

من كتب الشرق والغرب

وحدة العالم وحرية الشعوب

في مختلف الأمم الحليفة والمحايدة . فطاف باثنتي عشرة مملكة ، وزار طائفة من الحكام والقواد . ثم عاد إلى وطنه وتوفر على تأليف كتاب يضم مشاهداته وملاحظاته ومخاوفه وآماله وآراءه واقتراحاته لتوطيد سلم دائم يقوم على دعائم راسخة تقي الإنسانية وبال حرب عالمية ثالثة قد لا تبقى ولا تذر تأمل المستر ويلكي طويلاً في مشاكل الدول المختلفة ، وأمعن في فحص الأسباب التي تؤدي عادة إلى اندلاع نار الحروب منذ العصور الغابرة ، فتبين له أن طبيعة الانسان واحدة وغرائزه واحدة وأطباعه واحدة في جميع بقاع المعمورة رغم بعد المسافات واختلاف الأمزجة والأهواء ، وتباين طبيعة الأصقاع والأقطار ، كما بدا له وهو يحلق في الفضاء على متن طائرته . أن بلاد الله واسعة الأرجاء ، ولكنها متصلة الملقات بعضها قريب من بعض ، لا يفصل بينها إلا طمع الانسان وبغضاؤه ، وأن العالم الذي نعيش فيه عالم واحد تقطنه شعوب مختلفة ولكنها كأعضاء جسم واحد إن سقم عضو منه تأثرت بهذا السقم بقية الأعضاء . لذلك خلغ المستر ويلكي على كتابه عنواناً جليلاً « عالم واحد » One World وما كاد ينشر هذا الكتاب في عام ١٩٤٣ حتى تهاوت عليه جمهور غفير من القراء في جميع أنحاء الأرض ، وقد نقل إلى بعض اللغات الأجنبية منها الفرنسية ، وبيعت منه ملايين النسخ في الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لمساكنة واضحه وثاقب فكره ، وخطورة

الف الروائي الفرنسي جول فرن قصة في أوائل القرن التاسع عشر وسماها « الطواف حول العالم في ثمانين يوماً » . واعتقد المسكين أنه روى إحدى الأساطير العجيبه ، وأخذ قراؤه هذه القصة مأخذ الخرافة التي تدعو المرء عند المطالعة إلى ترك الأعتة للخيال الخصب يسمح في عالم الأوهام . ونرى اليوم أن جول فرن أخطأ في التقدير وأن أوهام بني زمنه أضحت دون الحقيقة بمراحل ، إذ قام المستر وندل ويلكي في شهر أغسطس من سنة ١٩٤٢ برحلة سياسية حول العالم استغرقت خمسين يوماً قضى منها ثلاثين يوماً على الأرض والباقي في أجواز الفضاء .

أما وندل ويلكي فهو أحد الشخصيات الأمريكية المعروفة في محيط السياسة ، وقد كان رئيساً للحزب الجمهوري في أمريكا وتقدم لا انتخابات رئاسة الجمهورية في عام ١٩٤٠ فغذله فيها المستر فرانكلين روزفلت . على أن هذا الأخير كان يطمئن إلى كفاية خصمه ويقدر مواهبه ، ولذا وكل إليه مهمة سياسية دقيقة في ظروف خطيرة جد الخطورة ، إذ كانت أمريكا وتقتد مشتركة في الحرب وكانت انتصارات اليابان تتوالى بلا انقطاع بسرعة فائقة لاسيما بعد كارثة « بيرل هاربور » كما أن زحف الألمان في أوروبا وأفريقية كان ينذر بشر مستطير .

غادر المستر ويلكي أمريكا مزوداً بإرشادات الرئيس روزفلت قاصداً تقصى حقيقة الأحوال باتصاله الشخصي برجالات الحرب وقادة الشعوب

الأقل . وقد عاب المستر ويلكي على مصر عدم وجود طبقة متوسطة فيها إذ لم ير سوى أقلية مفرطة في الثراء وأغلبية مفرطة في فقر مدقع .

ثم ذكر أن ما راعه في بلاد الشرق الأوسط التي مر بها تهافت الناس على سؤاله : « هل تنوى أمريكا الدفاع عن نظام يجعل سياسة البلاد الشرقية خاضعة لرقابة دول أجنبية دون أى سبب اللهم إلا أنها نكبت بوقوعها في لقط استراتيجة على مفترق الطرق الحربية والتجارية الهامة ؟ » وعلق المستر ويلكي في كتابه على هذا السؤال قائلاً : إنه يرى لزوماً عليه من الوجهة المثالية الاعتراف بأن هذا النظام لا يستقيم مع المبادئ التي تدافع عنها أمريكا في الحرب، وأنه كلما أمعنت الدول في تقرير هذه المبادئ زادت حالة التوتر والهياج التي تهدد هذا النظام .

ثم غادر رحالنا الشرق الأوسط وبمم شطر تركيا، فراعه فيها تقدمها الاجتماعي والصحي في فترة وجيزة لا تعدو العشرين عاماً . وأعجب بقوة الشعب التركي وعزمه على الوقوف موقف الحياد التام من الصراع الدامي الذي أنكه الدول الأوروبية ، ولكنه أظهر جهلاً تاماً بعلوم الجغرافيا حين ذكر أن عدد سكان تركيا ستون مليون نسمة .

وقد أفرد وندل ويلكي لروسيا السوفيتية ستين صفحة من كتابه ولذا لزم التحدث عنها في شيء من الإفاضة .

بدأ المؤلف وصفه بقوله إنه لم يحك في روسيا إلا خمسة عشر يوماً ، وإنه لم تتأت له فرصة زيارتها من قبل ، ولكنه قرأ عنها كثيراً ، وسمع عنها أخباراً كثيرة متناقضة كل تناقض متباينة كل التباين . ولذا سره أن يرى بعيني رأسه بعض الحقائق عن هذا البلد العجيب الذي جعل السلام بأسره في حيرة من أمره ، وزاد سروره عندما علم أن الحكومة

المسائل التي تناو لها بالبحث والتعقيب ، ورجاحة الحلول التي وفق لها بعد التمحيص والتنقيب . ومما يبعث على الأسف حقاً أن الملية لم تمهل المستر ويلكي طويلاً بعد وضعه كتابه إذ توفي في العام التالي - ١٩٤٤ - فلم يقدر له أن يحيا ليلس نفسه ما سوف تحققه الأيام من آماله وأحلامه التي كشفها في كتابه بشأن عالم الـ . ولعل الله أن يكون قد أراد به خيراً .

والآن أعرض بعض مشاهدات المستر ويلكي عرضاً موجزاً ، وأبدأ بالقول إنه لم يوفق في كل ما عن له من ملاحظات ، ولم ينبج في بعض الأحيان من الزلل ؛ إذ قد سرد بعض وقائع خاطئة ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يطل للمقام في كل بلد حل به .

استهل وندل ويلكي رحلته بمصر ، فاقصّل ببعض الشخصيات العظيمة وتحدث مع أولى الأمر من المصريين وزار بعض رجالات الانجيز والأمريكيين بين قائد ووزير مفوض . ولا تمهنا أحاديثه الخاصة أكثر مما ذكره عن الشعب المصري وعن حالة البلاد الاجتماعية والصحية والثقافية كما بدت له ؛ إذ لم يحف عليه سوء الحالة الصحية في مصر وتفتش الأمراض فيها تفشياً خطيراً بين بلهارزيا وتراكوما ، ولم تحف عليه حالة الفقر وما يجره في أذياله من جهل ومرض ودعة وتمسك بأساليب عتيقة في الترية والزراعة والصناعة يرجع بعضها إلى سوء توزيع الثروة العقارية وبعضه الآخر إلى الاستعمار وشعور الشعب أنه ليس سيدياً في بلده . ولكن المستر ويلكي أخطأ بلا شك حين ذكر أن ليس بمصر قاطبة مدرسة وطنية يمكن لمصرى أن يفض بها عدا مدرسة للبنات تديرها سيده أمريكية لتعليم البنات . ولعل مرشده لم يظن لدعوته إلى زيارة جامعة فؤاد الأول على

السوفيتية منحت الحرية التامة في التجول أينما يشاء وارتباد ما يشاء من الأماكن سواء في ذلك المصانع الحربية ، ومصانع الفزل والعزب الزراعية والمدارس والمستشفيات والمكاتب ، وخطوط القتال ، كما أتيح له أن يستفسر في صراحة تامة عن أية ظاهرة تثير دهشه ، وأن يلقي ما يروقه من الأسئلة لمراقبيه .

وقد أطال المستر ويلكي الحديث عن شجاعة الجندي الروسي وبسالته وحسن بلائه في فنون الحرب الحديثة ، كما أشاد باخلاص الشعب وتقانيه في الدفاع عن وطنه رجالا ونساء وأطفالا ، وأظهر إعجابه بالعمل الروس الذين يشتغلون في المصانع الحربية والمدنية لأعداد الأسلحة والأغذية والملابس اللازمة لتزويد الجنود بكل ما يحتاجون إليه في صراعهم الجبار مع العدو . ونوه بفضل هؤلاء العمال الذين دأبوا على عملهم لا يأبهون لآخطار الغارات ولا يكلون ولا يملون ، كما نوه بفضلهم في نقل بعض المصانع من أسسها بكامل عددها وآلاتها من مدينة إلى أخرى كلما أوغل الألمان في غزوهم ، ومنها ما نقل مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتر .

لعلك تدخر جزءا من إيرادك الضخم؟
— نعم كلما أقلعت زوجتي عن الأسراف .
— وكيف تتنفع بما تدخره من المال؟
— ابتعت منزلا جديلا بجزء من رصيدي
— وماذا تصنع بالجزء الباقي؟
— اشتريت أيضاً منزلاً بسيطاً في الريف أقضى فيه مع أسرتي أيام العطلة .
— وماذا تفعل بما يبقى لك من المال بعد ذلك؟
— أشتري به سندات الحكومة وهي سندات لا تعطى حاملها ربحاً أو فائدة .
— ولماذا لا تستغل تقودك في أوراق مالية تأتي لك بفوائد رابحة؟
— اتقصد يا مستر ويلكي أن أستغل رأس المال؟ إن هذا محال في روسيا، وعلى كل فهو عمل ينافي مبادئ .
— إذن ما الذي يحفزك إلى العمل بهذا الجد؟
— إنني أشرف على هذا المصنع ، وفي يوم من الأيام سوف أصبح رئيساً له . أترى هذه النياشين؟ إنني فخور بها لأن الحكومة منحتني إياها لجودة إنتاجي وربما يكافئني الحزب في يوم ما بإسناد منصب حكومي رفيع إلى .
— ومن يعولك في شيخوختك؟
— إنني أعول على ما أدرته من المال وإلا فالحكومة سوف تمولني .

وقد دار بينه وبين شباب يافع يشغل مركز مدير الإنتاج في أحد مصانع الطائرات حوار طريف مفيد ، أنقله لأنه يلقي ضوءاً على النظام الاجتماعي في روسيا السوفيتية وطرق المعيشة في هذا البلد الذي ظل العالم في جهل تام عما يحدث فيه أعواماً طوالاً . بادره المستر ويلكي بالسؤال الآتي :

— ما النسبة بين أجرك بصفتك مديراً لإنتاج هذا المصنع وأجر العامل العادي؟
— أجرى عشرة أمثال أجر العامل .
— كنت أظن أن الشيوعية معناها المساواة في الأجور؟
— ليست المساواة ضمن المبادئ

فعلى رأس كل منها مدير ، ولكل عزبة الحق في أن تستأجر من مخازن الحكومة الآلات الزراعية الحديثة وجميع أنواع المعدات الميكانيكية اللازمة لفلاحة الأرض فلاحة علمية على أن تدفع قيمة الاجبار للحكومة بتسليمها حصة من المحصول ، وأما باقى المحصول فيوزع على أعضاء العزبة كل حسب أيام عمله . ولكل فلاح الحق في أن يستبدل بنصيبه من المحصول أية سلعة يريد بها من متجر قريب من العزبة ، كما له الحق في بيع نصيبه إن أاد ، إلا أن الحكومة تشجع الفلاحين على أن يكون البيع لها مباشرة . . وقد لاحظ المستر ويلكى أن لدى الفلاحين رصيذاً من المال غير قليل وأن الغذاء لديهم وفير ، فخطر له أن يسأل بعضهم أيتمنون امتلاك قطعة أرض لأنفسهم ؟ فلم يفقهوا لسؤاله معنى وأجابوه أن أجدادهم لم يملكوا أرضاً في حياتهم .

ثم ختم وندل ويلكى جولته في روسيا بمقابلة المارشال ستالين ، فألفاه رجلاً بسيطاً هادئاً الطبع شديد المراس لا يأبه إلا للحقائق ولا يسنج في الخيال والأوهام ، ملماً بكل تفاصيل القتال وبكل ما يحدث في روسيا وفي العالم الخارجى . وقد قال له ستالين ذات مرة في سذاجة مؤثرة : « يا مستر ويلكى إنى نشأت نشأة فلاح في مقاطعة جيورجيا ولا أعرف الكلام المنق ، وغاية ما أستطيع أن أؤكد لك هو أنى أميل إليك كثيراً » . ثم قابل الضيف الأمريكى رهطاً من رجال روسيا المسئولين ، ذكر منهم مولوتوف وزير الخارجية وفيشنسى ولوزرفسكى مدير قسم الأخبار والمارشال فوروشيلوف وزير الدفاع الأسبق والسيدة ميكويان وزيرة التموين ورئيسة إدارة العلاقات الاقتصادية بين روسيا والبلاد الأجنبية ، وقد ألفتهم جميعاً رجالاً مثقفين ملهمين بالمشاكل الدولية إلماً تماماً ، ولا يشبهون البتة لاشكالا

— ألا تتمنى ان تهبي لأبنائك براءة خيراً من براءة تك في الحياة ؟ ألا ترغب في إبعاد شبح الموت عن زوجتك إذا ما توفيت قبلها ؟

— هذه أفكار رأسمالية يامستر ويلكى إنى بدأت حياتى عاملاً ، وسوف يبدأ أولادى حياتهم مثلى . أما زوجتى ففى تعمل وسوف تدأب على العمل ما مهدت لها صحتها ذلك أما إذا عجزت عن العمل فالحكومة تمولها . وهنا وجه إليه المستر ويلكى سؤالاً طالما رددته الدول الغربية لتثبت أن نظام السوفيت لا يمنح الفرد حرية القول والفكر : — افرض جدلاً أنك تخالف نظريات الدولة السياسية أو الاجتماعية فهل لك سبيل لبدء آرائك والدفاع عنها ؟ عندئذ أنكر الروسى إمكان حصول مثل هذا الفرض وهز كتفيه ولم يجب . فأردف المستر ويلكى :

— أستخلص من موقفك أنك لا تتمتع بأية حرية !

هنا احتد الشاب وأجاب فوراً :

— أنت عاجز عن الفهم يامستر ويلكى . إنى أتمتع بحرية لم يرها والداى طوال حياتهما إذ كانا فلاحين استعبدتهما الأرض فلم ينالا أى قسط من التعليم ، وإذا مرضا لم يجدا من يعنى بأمرهما . أنا أول شخص من سلالة أجدادى العريقة سئحت له فرصة التعليم والتقدم والعمل لانجاز فكرة وهذا ما أسميه الحرية . قد لا يعنى هذا الحرية في نظرك ، ولكن لا تنس أن نظامنا يجتاز مرحلة التطور وسوف نحظى في يوم ما بالحرية السياسية أيضاً .

والآن أعود إلى رحلة وندل ويلكى لاروى زيارته لأحدى «العزب الاجتماعية» . لقد تغير نظام الزراعة في روسيا إذ صارت الأراضي الزراعية ملكاً للدولة . أما هذه العزب

موراتوف حاكم البدأن اثنين في المائة فقط من سكان هذه الجمهورية كان لهم إلمام بسيط بالقراءة والكتابة قبل عام ١٩١٧ وأما الآن فقد انعكست هذه النسبة تماماً . ثم أردف مبتسماً : « إنى تلقيت أوامر من موسكو تقضى « بتصفية » هذه البقية الباقية من الجهلة وهى اثنين في المئة » . ثم طاف المستر ويلكى بدار السينما وهى دار مشيدة بالأسمنت المسلح على أحدث طراز . كما طاف بدار مركز الحزب الشيوعى بهذه المدينة فأبدى إعجابه ببنائها ونظامها ، حتى لقد حدثه رفيقه الروسى متباهياً : « لا يغرن عن تلك يا مستر ويلكى أن هذه الجمهورية أنشئت فى عام ١٩٢٢ بعد أن أخذت الثورة ، واليوم أصبحت ميزانية هذه الجمهورية ثمانين ضعفاً لما كانت عليه فى عام ١٩٢٢ ويشعر بهذا البون العظيم جميع السكان بقلهم ومعدتهم . كانت مقاطعة ياكوتسك فيما مضى بقعة ييضاء على جميع خرائط العالم ، وأما اليوم فإن مناجم الذهب فيها بلغت لوفرة إنتاجها شأواً عظيماً وضعها فى المرتبة الثالثة من مناجم روسيا التى تنتج معادن غير الحديد . وقد عثر للمستكشفون فى أرض هذه الجمهورية على ثروات معدنية جديدة ، منها الفضة والنحاس والرصاص ، كما وجدوا فيها آباراً للبترول . » ولم يفت المستر ويلكى أن يشير إلى أهمية الدور الذى سوف تلعبه روسيا فى السياسة الدولية بعد الحرب ، فألح فى التعاون معها حتى يستقر السلم . وأظهر إعجابه بتلك الدولة الفتية المتوثبة منوها بنجاحها الباهر فى إقامة نظام رائع للصحة العامة جعل من الروس قوماً أصحاء أشداء يعدون فى طليعة الأمم فى هذا المضمار ، فضلاً عن انتشار التعليم بينهم انتشاراً عميقاً جميع طبقات الشعب بلا تمييز بعد أن كان يتخبط فى ظلام الجهل الحالك أجيالاً عدة . وقد أشاد المستر ويلكى كذلك بحب الروس لوطنهم وتقائهم فى الذود عنه والتضحية

ولا لفة ذلك المظهر التبيح الذى يصوره الرسامون الهزليون للبلاشفة . غادر وندل ويلكى روسيا الاوربية واستقل طائرته قاصداً أصقاع سيبيريا — روسيا الآسيوية — المتراامية الأطراف التى يغطيها الجليد فى أكثر شهور السنة لزيارة إحدى مقاطعاتها وهى جمهورية « ياكوتسك » الاشتراكية المستقلة الداخلة ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية . أما هذه المقاطعة فيقطعها قوم ينحدرون من المغول فروا إليها أيام غزو جنكيز خان . وكان معظمهم فى الزمن السالف يتعيش من صيد الفراء والبحث عن مناجم الذهب ، لا يسكنون إلا أكواخا من الطين تشاركهم فيها بهائمهم ، وكانت الجماعات والأوبئة تقتك بهم فتكا ذريعاً حتى انقضوا تدريجياً أو كادوا . ولجمهورية ياكوتسك فى عهد القياصرة شهرة بالزهرى والسل والفراء ولذا جعلوها مأوى للمجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والسجناء المنفيين لجرائم سياسية .

قدم الضيف الأمريكى عاصمة تلك المقاطعة على متن طائرته ، فألفاها مدينة جميلة استهوتها لغرابتها ، فسأل رفيقه رئيس مجلس قوميسيرى الشعب : هل بالمدينة مكتبة عامة ؟ فقادته إلى مكتبة نظيفة واسعة الأرجاء مزودة بالكهرباء تحوى خمسمائة وخمسين ألف مجلد على حين لا يربى عدد سكان المدينة على الخمسين ألفاً . وقد دلت إحصائيات المكتبة على أن عدد مرتادىها خلال التسعة الشهور الأخيرة نيف ومائة ألف شخص جاء بعضهم من المدن الريفية المجاورة . ثم استقهم الزائر عن الملامح لهذه المدينة ، فدعاه رفيقه الروسى إلى مشاهدة مسرحية غنائية راقصة من نوع الأوبرا على مسرح فخيم كامل المعدات ، فأعجب الضيف بالرقص والغناء إعجاباً عظيماً . وسأل مرة أخرى عن نصيب الشعب من التعليم فى هذه الجمهورية النامية فأجابه الرفيق

من كتب الشرق والغرب

الاستبعاد الحديث في القرن العشرين ، إحداهما استثمار خارجي والاخرى استثمار داخلي . ومن المشاهد في التاريخ أن الأمم تخطو خطوات واسعة إلى الأمام في شتى الميادين العلمية والاجتماعية والطبية بعد الحروب أو الثورات أو القلاقل ، لما ينجم عن هذه الأحداث من انقلابات شاملة في تحديد القيم الروحية والعقلى . لقد قال كارل ماركس عن الثورات إنها « قاطرات التاريخ » أى إنها تجر وراءها التاريخ وتقدم به مسرعة في أحضان المستقبل . فإذا ما أخفقت الحرب أو الثورة في تقريب الانسان من مثله العليا ذهبت جميع التضحيات التى تلازمها أدراج الرياح ، وأصبحت الحرب أو الثورة حدثاً تاريخياً أجوف لا طائل تحته .

والآن أعود إلى الكلام عن الأهداف التى يتوخاها وندل ويلكى في الحرب العالمية الثانية ، والتى يأمل أن تحققها حتى لا تكون الملايين من ضحاياها قد فاضت أرواحهم عبثاً . أما هذه الأهداف فيمكن تلخيصها في كلمة واحدة موجزة وهى « الحرية » . ومن الحقائق المرة المؤلمة أن شعوب العالم تتشوق منذ الأزل بهذه الكلمة البسيطة الخلابية . والجميع يتحدث عنها ، ولكن بعضهم يتحدث عنها ليسلها ، وبعضهم الآخر ليستردها بقوة السلاح إن لم يكن من ذلك مفر ؛ إذ لم يسجل التاريخ على قدمه أن دولة غاصبة أهدت إلى شعب مفصوب حرية على « طبق من الفضة » كما يقول الفريون ليتناولها لقمة سائغة عذبة المذاق .

وقد جاء على لسان المستر ريلكى قول أرى أن أقله لما فيه من سخرية . ولعل تلك السخرية حقيقة واقعة فيكون الأمر أدهى وأمر : « إنى لا أزال أخشى أن أرى هذه الحرب تدنو من نهايتها قبل أن تسبى الشعوب الأسباب التى دعته إلى القتال

بحياتهم في سبيل توطيد أركانه وإعلاء شأنه . وختم حديثه عن رحلته قائلاً إن روسيا أضحت اليوم أمة غنية قوية يجب أن يقام لها وزن في عالم المستقبل . وشهد أنه رغم عدم ميله إلى النظام الشيوعى لا يسهه إلا الاقرار بأن هناك أشياء كثيرة في روسيا تستحق الإعجاب ، ولذا فهو يحث الشعب الأمريكى على التقرب من الشعب الروسى لادراك عقلية إذ يرى أن أمريكا وروسيا في الوقت الحاضر قوتان جبارتان لا تدانیهما في قوتيهما دولة ثالثة ، قوتان إن اتحدتا تمخض العالم عن سلم ثابت راسخ ، وإن تنازعتا تردى العالم في كارثة فاجعة .

طال بي الحديث ولما أته من سرد مشاهدات المستر ويلكى خلال رحلته حول العالم ، ويضيق على المجال لتناول جولته في بلاد الصين الشاسعة التى عرج عليها وهو في طريق الأوبة إلى الولايات المتحدة . ولئن فاتني أن أتحدث عن الشرق الأقصى لا يفوتني أن أشير إلى خاتمة الكتاب الذى أعرضه ، وهى خلاصة أفكار مؤلفه لما فيها من مغزى وعبرة ونصح .

عند ما أفاق العالم من ذهول الحرب العالمية الأولى ظن المتفائلون أنها آخر حرب يشهدها البشر فأغرقوا في خيالهم الحادع ، ولم يعمل أحدهم شيئاً نافعاً للملافة وقوع كارثة أخرى . واتضح لذوى البصيرة النافذة من المفكرين أن الحرب الأولى كانت نزاعاً بين دول مستعمرة لم تقدم منها الانسانية قتيلاً ، ففى حرب لم تحمل في ثناياها أى مبدأ جديد من تلك المبادئ السامية التى تتمخض عنها المثالية ، التى تدفع الأمم إلى التقدم الفكرى والتحرر من الأوضاع العتيقة البالية التى لا تتشى مع تطور الأذهان ، كالاستعمار والاستغلال الاقتصادى ، وهما صورتان بشعتان من صور

النظام الاستعماري ، وسواء راقنا هذا الكلام أو لم يرقنا ، فهذه هي الحقيقة التي لا مرء فيها »

وليت المستر ويلكي استرسل في دفاعه عن الحرية إلى النهاية الطبيعية التي يقودنا إليها المنطق السليم ، فيجزم بشدة أن الدول المستعمرة خليق بها أن تخلو عن البلاد التي تحتلها جيوشها على الفور أو بعد أن تضع الحرب أوزارها مباشرة . ولكنه وقف في منتصف الطريق المؤدى إلى الحرية الحققة — وكأنه ندم على اندفاعه في هذا التيار الحماسي الجارف — وعرض حلا لوضع حد للاستعمار لا يشبع ولا يقنع ؛ إذ اقترح أن تندمج الدولة المحتلة مع الدولة المستعمرة اندماج الماء بالراح أى اندماج بريطانيا العظمى مع البلاد المكونة لها يسميه الانجليز كومونولث . ولعله يخشى أن تخرج الأمم المحتلة فجأة من ظلام الاستعمار الموحش إلى نور الحرية الساطع فتبهر أنظارها أو يعلوها غشاء يحجبها تفضل وتنكب سواء السبيل ؛ فهذا استصوب أن تسندها الدولة المستعمرة لئلا تتعثر في جبهوها وهي حديثة عهد بالاستقلال فتزل قدمها وتهوى إلى الحضيض . ومن الغريب أن المستر وندل ويلكي لم يلفظ كلمة « الاستقلال » وإنما كل ما جادت به نفسه السمحة لم يعد لفظ « الحكم الذاتي » . وهناك ، على ما هو معلوم ، دول تتمتع بالحكم الذاتي دون أن تنفصم العرى بينها وبين الدولة الراعية — أو الدولة الوصية كما يقال الآن في لغة هيئة الأمم المتحدة — انفصاما كاملا . وما أبفض إلى النفس من أنصاف الحلول !

بعد أن فرغ المستر ويلكي من التحدث عن الاستعمار الخارجي ومجافاته للمثل العليا التي يأمل أن تحققها الحرب حتى لا يكتب لها الاخفاق كسابقاتها ، تناول موضوع الاستعمار

والآمال التي تعقدها على الفترة التي تعقب الحرب . « هذا ما يخشاه المستر ويلكي . وأما ما لا أخشى التصريح به فهو أن هذه الحرب الأخيرة إن هي إلا حرب استعمارية كسابقتها أفادت منها الدول المستعمرة كل الافادة ، ولم تغم منها الشعوب المهضومة أى غنى إلا محاق بها من خسائر مادية فضلا عن خسائر الأرواح في بعض الأحوال . وإلا فما الذى غنمته الهند مثلا من إقحامها في هذه الحرب رغم أنفها ؟

لقد أبرز ويندل ويلكي هذه الحقائق سافرة ، وأثنى على الحريات الأربع أو الخمس وعلى ميثاق الأطلنطي وعلى كل الجهود التي قطعتها على نفسها الدول الحليفة إبان للمعركة ، وحذر تلك الدول من العواقب الوخيمة التي تحيق بالعالم إن هي نكثت وعودها ، وقال تلك الجملة الرائعة « إن الحرية كلمة لا تتجزأ » . وذكر حديثاً أدلى به إليه أحد أرباب العقول الراجحة في الصين بصدد جبوط المفاوضات التي أجرتها إنجلترا مع الهند أثناء الحرب توطئة لمنحها نوعاً من الحكم الذاتي — تلك المفاوضات التي قام بها وزير التجارة الحالى في بريطانيا العظمى السير ستافورد كرييس ، قال هذا الصينى للمستر ويلكي : « يوم أجلت مطالب الهند الشرعية للحصول على الحرية لم تهو إنجلترا وحدها في عيون شعوب الشرق الأقصى ، وإنما هوت معها الولايات المتحدة أيضاً » .

ثم تناول الكاتب الأمريكى الحديث عن طموح شعوب الأرض قاطبة لنيل حقها الشرعى في الحرية والاستقلال قائلاً : « لقد أدرك العالم أن سيطرة شعب على شئون شعب آخر ليس هو الحرية ولا هو ما يبنى الدفاع عنه بقوة السلاح . ففي أفريقية وفي الشرق الأوسط وفي كل العالم العربى وفي الصين وفي سائر بلدان الشرق الأقصى الحرية معناها إلغاء

كل الغنم في كفة والغرم في الكفة الأخرى من الميزان . ويقترح المستر ويلكي في هذا الصدد إلغاء الحواجز الجركية التي تثقل التجارة الدولية أو تلوق ازدهارها الطبيعي .

على أن هناك نوعاً من الاستعمار الداخلي لم يشر إليه الكاتب ، ألا وهو استغلال بن طبقات الشعب للطبقات الأخرى أو استغلال الطبقة المالكة للطبقة العاملة استغلالاً قاصحاً . كما أنه لم يتناول موضوع تحرير الفرد من العوز والجهل والمرض والبطالة ، وهو الأمر المعروف باسم « الحريات الأربع » . ولعل مرد تجنب المؤلف هذه النقطة الشائكة ماجاء على لسانه في سياق حديث آخر : أنه لا يميل إلى المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية . ولا غرابة في ذلك إذ هو أحد الأترياء المعدودين في أمريكا ، وأمريكا حصن منيع للرأسمالية المتطرفة .

وخلاصة القول أن وحدة العالم توحى إلى المرء التضامن والارتباط الوثيق . وبلاد الأرض قاطبة تصبو إلى الحرية التامة بعد أن أهدرت هذه الكلمة لفظاً ومعنى أجيالاً طوالاً . والحرية إما أن تمنح للجميع أو تمتنع عن الجميع ، إذ أصبحت الحياة لا تنطق في عالم أقله سادة وأكثره عبيد . فإن حققت الحرب هذه الأمانى التي تيجش بها الصدور ، ردد الناس قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ، وإلا فعلى الأرض العفاء .

فؤاد وصفي أبو الذهب

الداخلي أو الاستغلال الداخلي الذي لا يتخلو منه دولة من الدول الرأسمالية ، وله نواح متنوعة ، منها ما هو خاص بأمريكا كشكلة الزوج فيها ومعاملة الأمريكيين لهم معاملة شاذة قاسية لا مسوغ لها إلا اختلاف لون البشرة ، ومنها ما هو عام يشمل الدول كافة . وقد قال المؤلف في سياق الحديث عن هذا النوع من الاستعمار أو الاستغلال : « نداءونا بأهدافنا التي نرمي إليها من وراء هذه الحرب كشف لنا القناع عن ظلمتنا . عندما نتحدث عن الحرية وتكافؤ الفرص لجميع الأمم تظهر لنا مفارقات مجتمعتنا المضحكة ظهوراً جلياً لا نستطيع معه سترها أو تجاهلها . إذا أردنا أن نتحدث عن الحرية وجب علينا أن ندرك هذا اللفظ على صحته ، وهو أن لنيرنا أن يتمتع بالحرية كما تمتع نحن بها سواء . فالحرية يجب أن تمتنع للجميع داخل حدودنا وخارجها ، فنصون مثلاً حقوق الأقليات التي لا غنى للكثرة عنها ، إذ تعد الحافز القوي الذي يدفع عناصر كل أمة إلى المنافسة والابتكار في شتى الميادين . »

وهناك حرية لا تقل شأنًا عن الحرية السياسية ، وهي حرية الدولة الاقتصادية ، فلكل دولة الحق كاملاً في توجيه اقتصادها الوجه الذي تراه ملائماً لمصالحها دون التقيد بصرط أو اتفاقات اقتصادية تملى عليها ودون ربط عملتها قسراً بعملة أجنبية بحيث يصبح